٣ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

المنازل

وحجرات الطابق الأرضي لها نوافذ صغيرة مركبة من قضبان من الخشب المنقور Grille de bois مرتفعة بحيث لا تسمح للراجل أو الراكب أن ينظر من خلالها . أما الغرف العلوية فنوافذها تبرز بمقدار قدم ونصف قدم أو أكثر ؛ وأغلبها مصنوع من الخشب المخروط المشبك ؛ وهو لضيق ثقوبه ، يمنع كثيراً من النور والشمس ، ويحجب سكان المنزل عن الأنظار ؛ ولكنه في الوقت نفسه يسمح بدخول الهواء . ومن العادة ألا يصبغ هذا الخشب ، ولكن القليل منها يصبغ بعضه بالأحمر والأخضر ، وبعضه يصبغ كله . وهذا النوع من النوافذ يسمى روشنا ، ولكنه في الاصطلاح الغالب يسمى مشربية ؛ والكلمة الأخيرة لها وضع آخر سيذكر بعد.

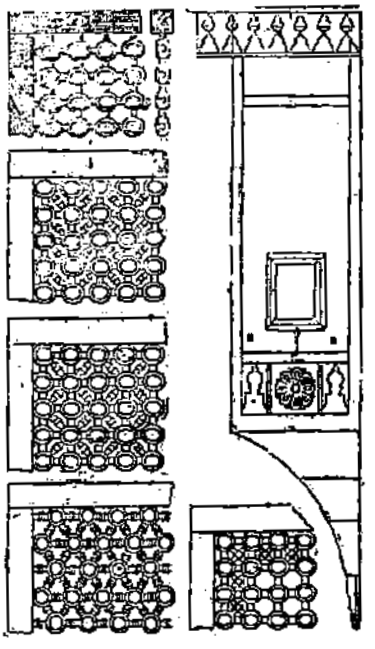

شكل ٣ ـ (نماذج من شبابيك الخشب المخروط والمسافة بين منتصف صف من الحبات إلى منتصف صف آخر تبلغ من بوصة وربع إلى بوصة وثلاثة أرباع

وكثير من النوافذ المختلفة الأنواع مصور في هذا الكتاب ؛ وقد أوردت على قياس أوسع رسوما لأكثر نماذج الشبابيك شيوعاً . انظر شكل (٣) . وقد يكون للنافذة الموسوقة آنفاً مشربية صغيرة تشبه نوعاً ما روشنا مصغراً ، تبرز عند الواجهة أو عند الجانبين . وتوضع فوقها قلل من الفخار ذات مسام لتبريد الماء بتعريضه لتيار الهواء . ومن هنا اشتق اسم «مشربية» ومعناه « مكان الشرب » . ويعلو النافذة البارزة مباشرة نافذة أخرى مسطوحة من الخشب المشبك أو من القضبان الخشبية أو من الزجاج الملون . وشباك هذه النافذة العلوية ، إذا كان لها شباك ، كثيراً مايكون ذا رسوم تواتمها موضوعات تصويرية fantastique أكثر من الأنواع الأخرى ، فيمثل طستاً فوقه إبريق ، أو صورة أسد ، أو اسم الله ، أو أمثال هذه الجملة : «الله أملى» الخ . وقد تكون النوافذ البارزة مُلوَّحة كلها بالخشب ، وقليل منها يميل إلى الأمام من أسفل إلى أعلى بزاوية عشرين درجة تقريباً . وتفتح من القمة لدخول النور . وبعض الأشكال الغالبة ، تكون جوانبها ذوات ألواح زجاجية .

شكل ٤ ـ (فناء منزل قاهري)

وفي أجمل المنازل أيضاً تجهز شبابيك النوافذ الآن بألواح زجاجية من الداخل فتقفل كلها في الشتاء لأن البرد القارس يشعر به المصريون عند ما تنخفض الحرارة إلى أقل من ستين درجة فاهرنهايت [1] . وأما نوافذ الدور الدنيا فأكثرها من طراز آخر لأنها مستوية مع سطح الحائط الخارجي . وجزؤها الأعلى يكون شباكا أو قضباناً خشبية ، والجزء الأسفل له دُرَف معلقة يقفل بها ؛ والكثير منها له مشربية للقلل تبرز عند جزئه الأسفل

(١) أما النوافذ الزجاجية على الطريقة الأوربية التي لكل منها شباك في خارج نصفها الأسفل فقد شاع استعمالها فيما بعد في المنازل الجديدة في أقسام كثيرة من القاهرة . وأكثر هذه النوافذ توجد في المنازل الشيدة على الطراز التركي الذي يقرب كثيراً أو قليلا من النظم الأوربية ؛ وهي لا تلائم المناخ الحار وإن كانت مريحة في الشتاء

وتتألف المنازل ، على العموم ، من طابقين أو ثلاثة (شكل ٤) ويتوسط كل دار كبيرة فناء مكشوف غير مبلط يدخل إليه من دهليز ينعطف مرة أو مرتين بقصد منع المارين فى الطريق من النظر إلى الداخل . وفى هذه الطرقة من داخل الباب يوجد مقعد حجرى طويل يسمى « مصطبة » وهو ملاصق للحائط الخلفى أو الجانبي يجلس عليه البواب والخدم الآخرون . وفى هذا الفناء بئر يتسرب ماؤه المائل للملوحة خلال الأرض من النيل ، كما يوجد فى جانبه الظليل جرتان يجلب إليهما الماء يومياً من النهر فى قرب [1] . وتطل الغرف الرئيسية على الحوش ، وتغطى جدرانها الخارجية بالجص وتبييض . وهناك كثير من الأبواب تفتح على الفناء ، منها واحد يسمى « باب الحريم » وهو مدخل السلم الذى يؤدى إلى الحجرات المخصصة للنساء ولرب الدار وأولاده [2]

شكل ٥ ـ (البهو أو غرفة الاستقبال)

ويوجد غالباً فى الطابق الأرضى غرفة تسمى (منضرة) شكل ٥ يستقبل فيها الزائرون من الرجال . ولهذه الغرفة نافذة واسعة من القضبان الخشبية ، أو نافذتان من هذا النوع تطلان على الحوش ، وأرضيتها جزء صغير يمتد من الباب إلى الجهة المقابلة منخفضاً عن بقية الغرفة بأربع أو خمس بوصات تقريباً . ويطلق عليه اسم (دُرْقاعة) [1] . وهذه الأخيرة تبلط فى المنازل الجميلة برخام أبيض وأسود ، وبقطع صغيرة من القراميد الحمر الجميلة فى نماذج معقدة أنيقة ، وبتوسطها فوارة تسمى (فسقية) يتدفق ماؤها فى بركة صغيرة قليلة الغور ، مغطاة برخام بلون الأرضية المحيطة بها . وتصرف مياه هذا النبع من الحوض بواسطة ماسورة . وأمامك نموذج من أرضية الدرقاعة شكل ٦ كما وصفتها آنفاً

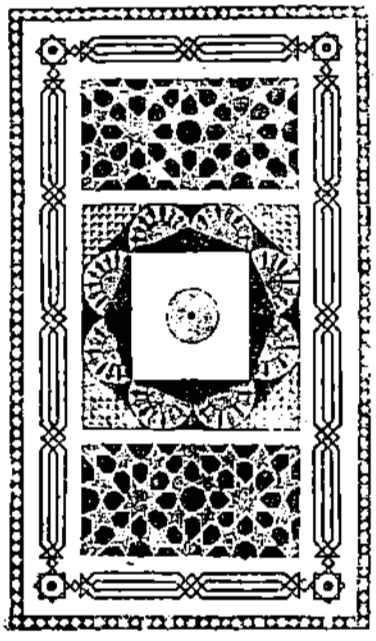

شكل ٦
(أرضية درقاعة عرضها حوالى ثمانى أقدام) ←

ويوجد فى نهاية الدرقاعة فى مواجهة الباب رف من الرخام أو من الحجر العادى على ارتفاع أربع أقدام تقريباً يطلق عليه اسم (صفة) يستند على عقدين أو أكثر ، أو على عقد منفرد ؛ ويوضع تحته أوعية للاستعمال العادى مثل أوعية « المطهر » والطست والإبريق المستعملين للغسيل قبل الأكل وبعده وللوضوء ، كما توضع فوقه أوانى المياه وفناجين القهوة وتكسى عقود الصفة فى الدور الجميلة بالرخام والقراميد على مثال بركة الفسقية (أنظر رقم ٧ و رقم ٨) كما يكسى الحائط الذى يعلوها إلى ارتفاع أربع أقدام أو أكثر تقريباً بمواد مماثلة : جزء منها بألواح رخامية

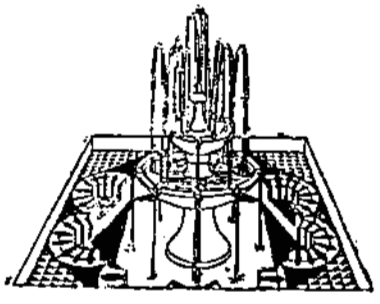

شكل ٧ ـ (نافورة)

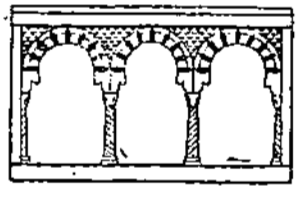

شكل ٨ ـ (صفة)

(١) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة عن الكلمة الفارسية « دَرجاه »

(١) يوجد فى بعض المنازل الكبيرة فناءان يخصص الداخلى منهما للحريم . ويوجد عادة فى الفناء الآخر أو فى الاثنين معاً سياج صغير به أقواس خشبية تزرع فيه الأشجار والزهور . وأكثر أنواع الشجر شيوعاً فى فناء المنازل الكروم والتوت ، وكثيراً ما يوجد معهما الموز والنخيل وأشجار أخرى

(٢) يلاحظ فى الرسم الذي رسمته لفناء المنزل أن باب الحريم هو ذلك الذى يواجه الناظر

كبيرة قائمة ، والجزء الآخر بقطع صغيرة على أسلوب الدرقاعة . أما المنصة أو الجزء المرتفع من الأرضية فيسمى (ليوان)[1]

ويجب على كل داخل أن يخلع نعليه فى الدرقاعة قبل الصعود إلى الليوان ؛ وهذا الليوان يبلط عادة بالحجر العادى ، ويفرش بالحصير صيفاً وبالبسط فوق الحصر شتاء ، وتوضع فوقه الحشايا والوسائد ملاصقة للجدران ، ويسمى حينئذ (ديوان) . وتوضع الحشية التى يبلغ عرضها حوالى ثلاث أقدام ، وسمكها ثلاث بوصات أو أربعاً ، على الأرض عادة . أما الوسائد وطولها بقدر عرض الحشية ، وارتفاعها مساو لنصف هذا القياس ، فتسند مائلة إلى الحائط . وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن وتغطى بالشيت المطبوع أو الجوخ أو بما هو أغلى ثمناً . وأحياناً توضع الحشية على سرير من جريد النخل ، وأحياناً أخرى توضع على منصة حجرية تعلو إلى نصف قدم تقريباً وتسمى « مِدِرَّه » ، وهى كلمة من أصل فارسى تطلق أيضاً على فجوة عرضها مساو لعمقها تقريباً ، وبها فرش ووسائد حول جوانبها الثلاثة . ويلاحظ أن بعض الغرف به مكان أو أكثر من هذه الأمكنة الداخلة تستخدم للجلوس شتاء وهى لذلك تبقى بدون نوافذ . أما حوائط الحجرة فتغطى بالجص وتبيض . ويوجد فى داخل جدران الغرفة دولابان أو ثلاثة قليلة العمق ، يحصاريعها حشوات خشبية دقيقة الصنع ، لأن الحرارة ويبوسة الجو يعرضان الخشب للتقلص والالتواء كما لو كان داخل تنور ؛ ولهذا السبب تصنع أبواب الغرف أيضاً بالطريقة نفسها . ويلاحظ أن هناك تفنناً عظيماً

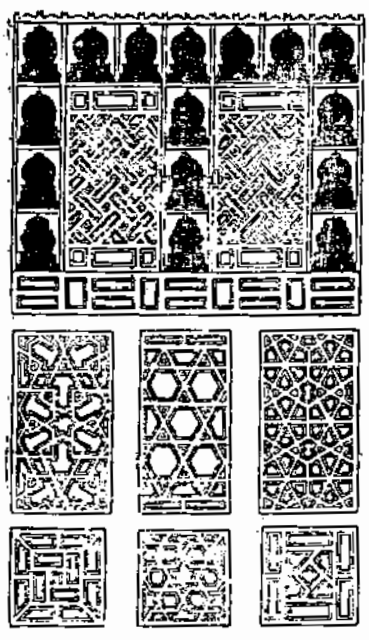

شكل ٩
(نماذج من الحشوات الخشبية)

ومهارة فائقة فى مختلف الأساليب المتبعة فى صنع تلك الحشوات الصغيرة وتركيبها ، وقد نشرت بعض نماذج مختارة منها (شكل ٩) .

أما السقف الذى يعلو الليوان ، فهو ذو جسور من الخشب المنقور يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة قدم ؛ ويلون بعضها وأحياناً يذهب ، ولكن هذا الجزء من السقف الذى يعلو الدرقاعة يكون فى المنازل الجميلة أفخم نقوشاً وأكثر زخرفة . وبدلاً من العروق الكبيرة تصمر بضعة شرائط خشبية دقيقة فى الألواح فتؤلف نماذج غريبة للتعقيد ، كاملة الانتظام ، ذات تأثير زخرفى عظيم .

وقد رسمت جزءاً من السقف على هذا الأسلوب الزخرفى ، ولكنه ليس من الطراز الكثير التعقيد . (شكل رقم ١٠) . وهذه الشرائط تدهن بالأصفر أو تذهب ، وما بينها يلون بالأخضر والأحمر والأزرق . وتكون الألوان فى المثل الذى ضربته ، كما هو مشار إليها فى الرسم بالنسبة نفسها ، ولكن على مقياس أكبر . أما المربع الذى يتوسط السقف حيث تكون الشرائط سوداء على أرضية صفراء . وكثيراً ما يتدلى قنديل من وسط هذا المربع . وهناك بضعة نماذج متشابهة ، وألوانها — الواحد بالنسبة للآخر — توضع غالباً بالترتيب نفسه ؛ إلا أن هذه السقوف فى بعض المنازل لا تلون . أما سقف النافذة البارزة فكثيراً ما يزخرف بالطريقة نفسها . كما ترى فى الشكل ١١ ، وهكذا يتجلى الذوق السليم بقصر الزخرفة على الأجزاء التى لا تكون دائماً أمام العين ، لأن إدمان النظر إلى مثل تلك الخطوط الكثيرة المتقاطعة المتجهة فى اتجاهات عديدة مما يؤلم العين

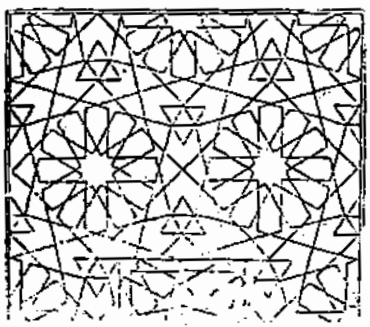

شكل ١٠ — (سقف درقاعة)
عرضه حوالى ثمانية أقدام

شكل ١١ — (سقف نافذة بارزة)
والمقاييس ثمانية أقدام فى ثلاثة

(يتبع)

عبد الله طاهر نور

(١) يجب عدم الخلط بين « ليوان » و « ديوان » المذكورة فيما بعد . والليوان يسمى أيضاً « إيوان » ومعناه الحقيقى رواق مكشوف الواجهة أو قصراً الخ . وكلتا « ليوان » و « إيوان » من أصل فارسى إلا أن الأولى تنطق محرفة من كلمة « الأيوان »